حواديت في قلب حواديت عن فترة سجن مضت

مقدمة "ملخبطة"

كان القدر رحيمًا بي فأعطاني بضعة ساعات من الإنتظار قبل بدء التحقيق الأول معي في مقر أمن الدولة في الإسكندرية، تم اعتقالي من منزلي بعد استيقاظي من النوم في عصيرة يوم شديد الحرارة في شهر رمضان، نظرت إلى أمي نظرة واحدة وتوضأت وذهبت لألتقط أنفاسي اللاهثة من الصيام والحر، تصفحت هاتفي وتبادلت النكات مع أصدقائي على صفحتي الشخصية، كان جدول يومي منشغلًا بأعمال تخص فرحة العيد، وكنت أفكر هل أذهب للكوافيره اليوم أم أبدأ الأول في تنظيف البيت مع امي بعدما انتهينا بالأمس من إعداد كعك العيد.
الساعة الخامسة دوت طرقاتهم العالية على الباب. قوة أمنية مخيفة لكنها لم تثير سوى السخرية في نفسي من فرط المبالغة! مدرعة وعربية فض الشغب وعشرات الجنود الملثمين بالسلاح الآلي وعربيات أمن الدولة البيضاء الشهيرة، أسطول من حوالي ثمانية سيارات بخلاف عشرات الجنود والمخبرين بطول الشارع الهاديء الذي أسكنه.
دخلت إلى مقرهم الذي كنت أجهل وقتها مكانه، وأنا مستمرة في سخريتي منهم وبعد مشاحنة قصيرة مع "عوف" طويل وعريض ويشبه لحد كبير "فرج" من الأفلام المصري. "عوف" هو المسؤول عن الأمن في أماكن الاحتجاز على الأقل في الدور الذي تم احتجازي به، غرفة 6. وأصبحت رقم 6. كنا قرابة الساعة 6 مساءًا. وهكذا اجتمعت السادسة ثلاث مرات ليحضر الشيطان وتبدأ رحلتي إلى السجن.
بدء التحقيق الأول معي قرابة الساعة العاشرة مساءًا. اللحظة الأولى التي تم تكبيلي بالأصفاد الثقيلة ووضع الغمامة على عيني، هي اللحظة التي استيقظت فيها بصيرتي وعرفت نفسي بعدها كما لم أعرفها من قبل.

خرجت من السجن بعد عام وأربعة أشهر تقريبًا. كان القدر لطيفًا معي إذ جعل خروجي مفاجيء ومدهش تمامًا مثل دخولي وتقريبًا في نفس الموعد.
كانت الساعة قرابة الرابعة عصرًا، أغلق باب السجن. في عزلتي الانفرادية أمكث. حرارتي تصل لقرابة الأربعين درجة وأعاني من إسهال مصحوب بدماء وحالتي الصحية ليست أفضل من حالتي النفسية. لكنى كنت عقدت العزم أن استمر أقاوم حتى النفس الأخير. ثم على حين غرة آتت السجانة تنادي اسمي بهلع غريب وتطلب مني النزول سريعًا معها. لم تعطيني وقت حتى لأرتدى حمالة صدري، وضعت الجلباب الأبيض فوقي ولملمت شعري وأنا أهرول خلفها وهي تطلب مني السرعة!

أخبرني أني سأخرج. الآن. خمس دقائق جهزي كافة احتياجاتك ولا تخبري أي شخص وتعالي. ساعات مضت ومخاوف تخبطتني وظنون وشكوك وأعاصير داخلي وبخارجي كنت كعادتي أجلس رافعة رأسي الذي بالغت في هوسي بألا أخفضه للحظة خلال تلك التجربة. وبصراحة كان سبب هوسي هذا بسيط وساذج جدًا، مجرد مشهد قبل اعتقالي رأيته في مسلسل كنت أتابعه لشاب يتم اعتقاله من أمن الدولة ووضع كيس أسود على رأسه وكان يمشي في رواق طويل بصحبتهم خافضًا رأسه. كان المشهد مؤلما لي. لذلك حينما تم اعتقالي اتخذت قرارًا بألا أخفض رأسي. أعلم أن الموضوع يبدو مجنونًا وساذجًا ومبالغًا فيه. وهو كذلك بالفعل لي اليوم لكنه وقتها كان بالنسبة لي أمر بالغ الأهمية.

على أية حال، مشاهد كثيرة ثم قرابة الساعة العاشرة مساءًا خرجت من تجربة الاعتقال.
في اللحظة التي مررت فيها من بوابة أمن الدولة في العباسية وركبت سيارة أحد الأصدقاء الذين حضروا لاستقبالنا. ويدي خالية من الحديد وعيني ترى الطريق واستطيع أن اطلب منه أن يتوقف وأن اتحرك كيفما شئت. في اللحظة التي أدركت فيها أن جسدي عادت إليه روحه. اندمجت حريتي من بصيرتي وأصبحت كمن حيزت له الدنيا وما فيها.

لحظة الدخول إلى تجربة الاعتقال تظل محفورة في أذهاننا، لكنها تظل غير مكتملة حتى تلتقي بنصفها الآخر، لحظة خروجك من الإعتقال. وهكذا كل شعور مؤلم مررت به خلال تجربتك يظل عالقًا يسبح في نفسك ويجرحك في قلبك ويؤلم روحك، يظل غير مكتمل حتى يلاقي نصفه الآخر لما تسترد حريتك. والحقيقة أن الحقيقة الوحيدة الأكيدة طيلة تجربة اعتقالك مهما طالت وامتلئت آلام أنك ستخرج. الحقيقة الوحيدة أنك ستخرج.
هذا الشعور بالجوع الشديد الذي لم أعرفه من قبل، سيكتمل حينما تمتلئ معدتك بأطيب الطعام الذي ترغبه من يد من تحب وأنت في حريتك، ذلك العطش المؤلم والإرتواء بماء ساخن له طعم غريب سيظل موجود حتى ترتوي بماء عذب صافي بارد كما تشتهي. ستبقى الزنازين العفنة والحشرات والظلمة تصحبك، زنزانتي الإنفرادية مازالت موجوده معي لكنها اليوم موجودة في جانب

الصورة وفي الجانب الآخر فراشي المريح وغرفتي الواسعة ورائحة البيت الطيب وأهله، حديد سيارة الترحيلات الذي كاد يكسر عظامي يومًا ما زال موجود معي لكن يصبحه سيارات واسعة بمقاعد جلدية مريحة أدخلها وأخرج منها كيفما أشاء. وجه السجان مازال موجود ووجه "نعيم" ما زال حاضرًا في مخيلتي رغم أني لم أر وجهه أبدًا لكنه مصحوب بوجوه كل من يحبني وحملني في حضنه الطيب بعد خروجي.
الاعتقال بكل تفاصيله الصغيرة وإطاره الكبير يمثل تقريبًا كل شرور الدنيا، لكن أنا ممتنة لهذا الشر العظيم الذي عرفت لأنه بمجرد خروجي وعودتي لحريتي الكاملة عرفت أيضًا معاني الخير كلها وأصبحت ممتنة لنعمة الخير.

"نعيم" هو القائم بأعمال "فرج" أظن أن الجميع يعرف فرج، من فيلم الكرنك قصة العظيم نجيب محفوظ، أريد أن أحكي لكم عن تجربتي مع الكتب أيضًا والأغاني في السجن، لكن لننتهي الآن فقط من فرج -أقصد نعيم- هو مساعد ضابط أمن الدولة الذي كان يطلق على نفسه اسم "حسن عبد الرحمن" وكانوا جميعًا في مقر أمن الدولة يطلقون على الغمامة التي تضعها على عينك اسم "نظارة". وهكذا قضيت ليلتي الأولى أجمع تلك التناقضات وأضحك على كم سخرية القدر مننا. هذا النعيم كان يلعب بأمتياز دور جهنم، وهذا الحسن كان ذميم الخلق والروح ومشوه الفكر لدرجة جلبت معي شيئًا من التعاطف رغم كراهيتي له. وتلك الغمامة التي تحجب النظر يطلقون عليها اسم "نظارة" !
كان عقلي يعمل بكامل طاقته في تلك الفترة، كأن أجراس الإنذار بداخله انطلقت فكان منظم وسريع وحاضر بشكل أثار إعجابي، لكن هذا النشاط كان سورًا عاليًا يحجب من خلفه أمواج هائلة من المشاعر المتراكمة، غضب وحزن وخوف وقلق ووجع ووحدة ويأس. وكل تلك المشاعر تثور على السور العالي الذي بنيته فور بقائك وحيدًا. ينخفض صوت العقل وتشعر أنك ستفقده تمامًا وتحاصرك كل تلك المشاعر في وحدتك وفي ليالي السجن الطويلة.

حسن ونعيمه فيلم وفترة السجن الأولى

أفلام كثيرة أبيض وأسود وعلامات في السينما المصرية يعرفها كل المصريين مثل فيلم "حسن ونعيمة" لكن أنا للأسف لم أشاهد الفيلم كاملًا ولا مرة، وعلى الرغم من هذا كان عقلي يخلق صورًا هزلية في فترة حبسي ويصنع "كوميك" ساخرة كنوع من أنواع المقاومة بعضها أفصحت عنه لهم وبعضها شعرت أن الإفصاح عنه سيحملني تكلفة باهظة لا حاجة لها. منهم هذا "الأفيه" أطلقت على ضابط أمن الدولة الذي كان يحقق معي "حسن" والمساعد الذي قام بدور "فرج" كما حدثتكم من قبل، أطلقت عليهم اسم "حسن ونعيمة" وأثناء التحقيقات وأنا أجلس مكبلة اليدين ومعصوبة العينين كنت أغرق في خيال من راقصة ترقص ببدلة ملونة في مقهى بلدي قديم ويجلس على نصف ركبته "حسن" يصفق لها وصوت الطبل من خلفهم وضحكات السكارى، مشهد متكرر في أفلام الأبيض والأسود وكنت قد خلقت صورة في عقلي لملامح "نعيم" أما "حسن" فكنت أعرف شكله فهو كان قائد الحملة الأمنية المبالغ فيها إياها التي قادتني لهذا المكان، رغم إنكاره مرارًا أنه نفس الشخص، إلا أن هذا الإنكار أكد لي أنه هو. لذلك استطاع عقلي بسهولة خلق هذا الخيال لحسن ونعيمة ولكن في خيال كانت نعيمه امرأة متحولة تحتفظ بشنبها على وجهها مثلما تخيلت "نعيم". ربما لو قرأ كلماتي اليوم أحدهما لفهم سبب ابتسامتي "الباردة" كما وصفها التي كانت مرسومة على وجهي.

"هقطعلك لسانك وايدك" من ضمن التهديدات الكثيرة التي ألقاها، لكن هذا التهديد لم يثير في ذهني سوى صورة أخرى من فيلم بطولة الفنان "حسن حسني" ورامز جلال" ولا أذكر اسمه كان فيه مشهد يقول فيه أنه سيقوم بقطع يد وودان أبوه حتى لا يشاور لهم وردد "كده بابا باظ خالص" -حد يعرف اسم الفيلم يفكرني؟- ، هذا أيضًا كان من ضمن أسباب ابتسامتي "الباردة" يا حسن لو ما زلت مهتم تفهم السبب.

على أية حال هكذا نمت روح الدعابة بداخلي في تلك الفترة، وكانت أغلب ردودي ساخرة ممزوجة بالضحك حتى اللحظة الأخيرة.
لكن الأمر الذي تضرر صراحة هي ذاكرتي، أصبحت أشبه السمكة الزرقاء من فيلم الانيميشن "نيمو". لكن أليست هذه هي الدنيا؟ كل مكسب له ثمن؟ وكل شيء له أجر مدفوع. كل شعور كل لحظة..
ألم تكن الثورة على الظلم وطلب الحرية ثمنها مقبول لنا؟ مضى عليها أكثر من عقد من زمن، ومازال الهتاف في أذني يصم صوت الشوارع وكافة الضوضاء ويتردد عاليًا داخلي كما كان يتردد في شوارعنا كلها في 2011، "الحرية تمنها االدَّم".

ربما لم ندفع دمائنا إلا أن الثمن الذي ندفعه في ظني أكثر قسوة من الموت. لكنه ثمن مقبول أيضًا ندفعه ونسعى للحصول عليها، الحرية. وما دمنا نقاوم هناك أمل ألا تنتهي مساعينا للهزيمة، أو كما قالت رضوى عاشور "هناك احتمال آخر لتتويج مسعانا بغير الهزيمة، ما دمنا قررنا أننا لن نموت قبل أن نحاول أن نحيا ..".

وكان الضحك دائمًا خير سلاح للمقاومة، اصطنع الضحك حتى يصنعك. واضحك حتى تحترف آلياته في العلاج والمقاومة. اضحك.

ونحن نحاول أن نحيا رغم الموت والهزائم

بعد عشرة أيام في أمن الدولة، واعتقاد وهمي بأن رحلة المجهول انتهت، وأنني أعرف ما سيحدث فيما بعد وبحكم شغلي يمكنني التنبؤ بما سيحدث بتفاصيله، إلا أنه مرة أخرى تفاجئني الدنيا بقدرتها المذهلة على التغيير وعلى الاختلاف، كل تجربة مميزة بذاتها، لا يوجد تجربة تشبه الأخرى، ولا تفصيله مثل الثانية، حتى في شروق الشمس الواحدة على المكان الواحد، شعاع الشمس الذي يسقط على عيني مختلف عن الذي يسقط عن عينك، مختلف في شعوره، في ملمسه، في لونه. في أثره في نفسك ولونه على جلدك. لأن في النهاية كل شيء نسبي، نسبة لك. لا يوجد ثوابت ولا شيء جامد، كل شيء يختلف وفقًا لك أنت.

وبهذه الأفكار وجدت نفسي في سيارة الترحيلات منتقلة إلى المجهول، لا أدري إلى أي سجن يتم توجيهي، ووحيدة ومتعبة وجائعة بشكل مؤلم بعد 10 أيام من أكل الجُبْن والعيش فقط. أشعر ببرد شديد مع اقتراب منتصف الليل على الطريق الصحراوي بالرغم من أننا في شهر يونيو، والسيارة مظلمة بشدة وتهتز وتخبط في حديدها في طريق طويل مجهول، يمنعني كبريائي من السؤال إلى أين، وتسيطر على أفكاري فكرة واحدة تصاحبني في باقي الرحلة حتى النهاية.

نفس الفكرة التي لا تنفك تتكرر بداخلي كلما شعرت برعشة الخوف تسري في مفاصلي من المجهول "مرة أخرى إذًا؟ لا بأس، معركة جديدة ربما، وربما مجرد جولة أخرى في المعركة ذاتها. وستمضي منها واقفة على قدميك كما مضى ما قبلها، فلا بأس". وكانت تمضي الرحلة من محطة مظلمة لأخرى حتى اللحظة التي خرجت فيها من بوابة فرع الأمن الوطني في العباسية، لن أطلق عليها اللحظة الأخيرة لأنني لن أكذب عليك، تلك الرحلة لا تخرج منها ولا تخرج منك. تحمل منها أجزاء من ظلمتها. من الخوف من الوحدة، من المجهول، وتحمل منها روح المناضل التي تقتات ببطء خلال الأيام على كل حشرات زنزانتك وتنمو وترافقك كصديق وفي أينما ذهبت.

كنت أقول دومًا لنفسي أني لم أعرف من قبل معنى الجوع ولا العطش ولا الشعور بالبرد ولا الوجع إلا لما تم اعتقالي، لكن الحقيقة أن تلك الذكريات المؤلمة هي نفسها التي جعلتني أعرف معنى الشبع والارتواء والدفء والراحة.

توقفت السيارة أمام مقر احتجازي الذي سأقضي فيه خمسة أشهر متتابعة، نصفهم إنفراديًا، المكان الذي سيحمل أول ندوب في جسدي بعد تعرضي للضرب والتعذيب البدني والنفسي. والمكان الذي سيتم ترحيلي منه بعد شفائي إلى سجن القناطر للنساء. لتستمر الرحلة من مجهول لمجهول ويستمر القدر يفاجئني بنفحات الرحمة التي تعطر عفن الواقع.

قليلًا من الأمل كثيرًا من الاستمرار في المحاولة

اتذكر مقالة مشتركة كتبها علاء عبدالفتاح وأحمد دومة معا من داخل محبسهما، أعجبت بها لدرجة أني طبعتها واحتفظت بنسخة منها، كان يوجد بها جملة اتذكر تقول "كذلك الأمل كاليأس خيانة" وهي الجملة التي تشعر بحقيقتها تماما وأنت في السجن، بخلاف الجملة التي كنا نرفعها شعارا عاليا على أعلامنا في الشوارع في فترة الثورة الأولى "اليأس خيانة"، نعم اليأس خيانه ولكن أيضا الأمل خيانة, وهكذا نضجت عقولنا وجلودنا في جحيم عقد وأكثر من الزمن في الثورة. لازلنا نحاول نعم. نحاول أن نبقى أحرار أينما كنا. هل فقدت حريتي يوم واحد؟ أنا لا ولكنه وحده جسدي تمكنوا منه لبعض الوقت ويشهد الله أني لا أنفك أقاومهم حتى النهاية مهما كلفني الثمن. لكن حريتك هي شعلة صغيرة بداخل قلبك، أو كما تقول العظيمة د.ليلى سويف، هي كالنداهة، الحرية نداهة تنادينا منذ الصغر وننجذب ناحيتها، أحب قصة النداهة، أنا أحب القصص جدًا، وأحب الأساطير اليونانية والإغريقية، وأحب الحدوته خلف الحدث، الحدوته خلف صناعة فيلم معين أو أغنية معينة، طبعًا جزء من الحواديت التي أمتلكها مجرد تأليف لا يمت للواقع بصلة عرفتها من مصادر صفراء ولم أعني بالتحقق منها، فلقد أعجبتني، أليست المتعة غاية كافية؟

تلك الحصيلة من الحواديت والأساطير هي التي جعلتني أنجو في ليالي الإنفرادي.

النداهة وأم كلثوم ووجع الظهر

قالت لي زميلتي في الزنزانة بجواري التي لم أراها أبدًا فقط رأيت قدمها من أسفل باب زنزانتي حينما خرجت لتغسل الجردل الخاص بها في الخمس دقائق المخصصين لهذا الأمر بالتتابع بيننا، قدمها بيضاء وكبيرة أظن مقاسها 40 على حسب مقاس الشبشب أيضًا أمام زنزانتها الذي كنت استخدمه، لذلك أظن أنها طويلة، وتخيلت باقي ملامحها في رأسي كما فعلت مع كل ما حجبه السجان عني، أكملته بالخيال فالعقل لا أحد يملك أن يحجبه سوى صاحبه. قالت لي "إيمان" زميلة الزنزانة المجاورة ذات ليلة بعدما توقفت عن البكاء الذي كنت أسمعه عاجزة عن هدهدتها "تعرفي تغني أو تحكي لي حاجه؟" وهكذا استمرت وصلة الحكي والغناء كل ليلة بعد انتهاء فقرة البكاء أو قبلها وأحيانا يغمرنا الحزن ويطفو فوق أصواتنا النحيب فنسكت حتى نغرق في النوم. ومضت الأيام دوالي، ثقيلة؟ نعم ثقيلة كسرت فينا أشياء وترجلت من على صهوة الحصان أحلامنا ونامت بجوارنا في وضع الجنين تنظر مباشرة إلى أعيننا التي لا ترى في ظلمة الزنزانة شيئا سوى لمعة عيون أحلامنا، ولكنها في النهاية مضت. وها أنا اليوم أكتب وأحكي وأغني وأقول وأضحك. اليوم أشاهد كل ما حدث وأقف أنظر لمن مازال هناك في تلك الأماكن الشريرة ينجو بخيره في قلبه، يعافر لكي لا يتحول لمسخ. و احكي له قصص وحواديت وانتظر سماع قصصه وحواديته أنا وآلاف غيري، آلاف ممن ندهتهم "النداهة"، أتعلم قصة النداهة؟

النداهة من الأساطير الريفية المصرية، يقول الفلاحون أنها امرأة جميلة جدا وغريبة تظهر في الليالي الظلماء في الحقول، لتنادي باسم شخص معين فيقوم هذا الشخص مسحورا ويتبع النداء إلى أن يصل إليها ثم يجدونه ميتا في اليوم التالي. الحاج عبد الخالق محمد، ويقترب عمره من التسعين الآن يقول: التقيت النداهة زمان، وقتها لم يكن هناك بالقري نور، وكان الظلام الحالك يلف كل شيء في البلدة مع حلول المغرب، وأتذكر حينها أنني كنت ذاهبا مع زوجتي إلى فرح أحد الأقارب، وتأخرنا هناك وعدنا في وقت متأخر، وفي طريق العودة، وكنا نمر بجوار ترعة ممتلئة بالماء والظلام حالك، فوجئت بصوت امرأة ينادي من خلفي بأسمى، التفت لأجد امرأة جميلة في العشرينات من عمرها، كانت جالسة بجوار الترعة، وبرغم الظلام إلا أن ملامحها كانت واضحة تماما، وجدت نفسي ذاهبا إلى حيث هي جالسة، بالقرب من الترعة، وهنا انتبهت زوجتي وصرخت، أيقظني صوتها الصارخ، من حالة التوهان والاستسلام الغريب للنداهة التي قالت وهي تختفي في الماء: يوما ما ستكون لي، ثم ضحكت ساخرة وهي تقول لزوجتى: لقد انقذتيه مني لكني سآخذه منك.

تقول القصص أيضًا أن النداهة ممكن تسبب الجنون فقط دون الموت، في حين أنها يمكنها التشكل بأكثر من شكل وأكثر من حجم لنفس الشكل وليس بالضرورة أن يموت الشخص في اليوم التالي أو يصاب بالجنون بشكل كامل، فقط يحدث ما يمكن أن نقول عليه بعض الهلاوس النفسية كأن تجد الشخص يتحدث مع نفسه ويبدأ بالتردد كثيرا على التجول داخل الأراضي الزراعية، ومن الصعب عليك تعقبه ومعرفة أي الأماكن التي يذهب إليها بالتحديد.

يقال أيضا عن تلك الأسطورة أن النداهة أحيانا تقع في حب أحدهم وتأخذه معها إلى العالم السفلي وتتزوج منه، وفي هذه الحالة يختفي الشخص كليا ويظهر بعدها فجأة إلا أنه يتوفى، بعد ذلك ويقول البعض أن وفاته هي بسبب أنه تخلي عن عالمها السفلي وعنها وتنتقم هي منه بقتله خوفا من كشف أسرار عالمها، لذلك يموت البعض في اليوم التالي أو يصاب بالجنون أو يختفي تماما.النداهة وهي مخفية وذات صوت جميل تسحر قلبك وتناديك باسمك كأنك لم تسمع اسمك من قبل.

يفسر علماء النفس بأن "النداهة"-أي التي تنادي- تقع في حب (المندوه) بالكبت العاطفي لدى الشخص الذي تقوم النداهة بندائه ومحاولته لجذب الاهتمام والتنفيس عن مشاعر الكبت في صورة هلاوس إرادية أو لاإرادية تعبر عن اهتمام النداهة به.

أليست الحرية تشبه النداهة كثيرًا؟ قتلت بعضنا وأصابت بعضنا بالجنون وأصابت الباقي بالهلاوس النفسية والتكذيب، وعلماء النفس يقولون أن سبب اختراع قصة النداهة الكبت العاطفي الشديد، أليس اشتياقنا الشديد للحرية أيضًا هو ما يخلقها؟

قمة العبث أن تحاول أن تمنطق العبث!

10 جلسات نيابة، كل جَلسة 15 يوم، بإجمالي 150 يوم، تلك هي الفترة التي تقريبًا تكون متأكد أنك لن تخرج خلالها، 150 يوم من تجديد الحبس والتحقيقات في نيابة أمن الدولة العليا، أما ما يحدث حقيقة ليس معي فحسب بل مع كل المحبوسين سياسيًا وخاصة الذين تم اعتقالهم في فترة "كورونا" مثلي. تم عرضي على رئيس النيابة في المرة الأولى بعد 10 أيام اختفاء قسري، قضى حوالي ساعة معي في مناقشة غير رسمية وفي محاولة بائسة لاستخراج معلومات تخص أماكن عملي مما لم أخبر الأمن الوطني به في فترة اختفائي عندهم، ثم بدأ التحقيق معي في حضور محامين أثنان بعد إلحاح من عدة زملاء محامين كانوا يرغبون في الحضور لكن تخوفًا من الوباء والإجراءات الوقائية كان ممنوع اكثر من محامي واحد، لكن سمح لي باثنان، وفي الوقت نفسه ممنوع أن أتواصل معهم أثناء التحقيق أو أن يتدخل في أقوالي أو يتواصل معي بأي شكل ولو بالإشارة أو النظر اتجاهي.

استمر التحقيق من الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا وحتى قرابة السادسة، وخلال تلك الفترة الطويلة كانت أغلب الأسئلة عن قراءاتي وعن أفكاري الفلسفية والدينية والسياسية، في حين أن الاتهام كان الانضمام لجماعة ارهابية دون أن أعرف ما هي تلك الجماعة الإرهابية -ولا هم يعرفوا- وايضا اتهام بنشر أخبار ومعلومات كاذبة عن عمد دون إخباري ما هي تلك الاخبار أو وجود حرز بتلك الأخبار والمعلومات الكاذبة، واتهام ثالث يخص سوء استخدام شبكات الانترنت لارتكاب أعمال ارهابية، وبالطبع لم اعرف ما هي الأعمال أو كيف استخدمت الانترنت لارتكابها.
بعد هذا التحقيق ولمدة 150 يوم يتم تجديد حبسي على الورق تحت مسمى "تحقيق" دون أن يتم عرضي بالمرة على رئيس نيابة أو حتى الإبقاء علي في مكان احتجازي في المديرية والاكتفاء بالورق. لكن كل 15 يوم يطلب مني تجهيز حقائبي وحمل أغطيتي ومتاعي، ويتم تقييدي بالكلابشات ويتم ترحيلي في تلك السيارة الحديدية في مأمورية ضخمة تخص جرائم الإرهاب من الساعة السابعة صباحًا متوجهين إلى نيابة أمن الدولة العليا في التجمع الخامس في القاهرة، ويتم وضعي في زنزانة ضيقة قذرة أسفل جراج سيارات بدون أي فتحات تهوية أو مراوح وفي وجود مئات المتهمين من كافة المحافظات في قضايا جنائية مختلفة رجال ونساء في زنازين مجاورة مفتوحة بقضبان حديدية يتبادلن السجائر والممنوعات المهربة والإشارات الجنسية. ويستمر جلوسي في تلك الزنزانة من الساعة التاسعة صباحًا تقريبًا وحتى الخامسة عصرًا ثم يتم ترحيلي بالطريقة نفسها من التجمع الخامس إلى مديرية أمن الإسكندرية. كل هذا وأنا أعاني من مشاكل صحية تسببت لي في نزيف مستمر وآلام حادة في منطقة الحوض وكان من المفترض عدم نقلي من مكاني وتوفير سوائل بشكل مستمر وسبل راحه لكي أتمكن من معالجة مرضي.
تكرر المشهد نفسه 10 مرات كاملة، أضف عليهم محاولات فاشلة في أغلب تلك الرحلات لترحيلي لسجن القناطر للنساء ورفض السجن إيداعي بسبب حالتي الصحية، وفي تجديد حبسي على الورق التاسع أصابني إعياء شديد واغشى علي في الزنزانة وفقدت اعصابي وظللت أطلب تواصل مع محامي أو العرض على النيابة، وفي النهاية تم إجباري على الصعود لسيارة الترحيلات بالقوة وضربي داخلها من قبل ضابط وأمين شرطة وتقييد قدمي في حديدها حتى منتصف الطريق الصحراوي لما صعد ضابط من الترحيله وأمرهم بفك قيودي وحاول مداواتي إلا أنني رفضت اقترابهم مني. تجربة أخرى لن أنساها ومازلت لا أحب أن أحكي كافة تفاصيلها ولكني يومًا ما سأحكيها كاملة.

وهكذا استمرت تلك الحالة حتى تم ترحيلي لسجن القناطر، وانتهت مدة العرض على النيابة والتحقيقات الجدية التي آلت لحبسي كل تلك الفترة قادت إلى تحقيقات أكثر جدية ولكن أمام القضاء تلك المرة و"جلسات المشورة" حيث استمر الحال مشابه يتم تجديد حبسي ولكن تلك المرة 45 يوم ودون حضوري أمام القاضي لكن الأساتذة المحامين كانوا على الأقل موجودين ويبذلون جهدهم لمحاولة إخراجي من السجن بالتحايل بحالتي الصحية وبحالة أهلي، فلا قانون ولا اتهامات ولا تحقيقات، وأيضًا من مزايدا جلسات التجديد أما القضاة أني كنت أتواصل مع زملاء سياسي آخرين رجال ونساء، وكنت أشاهد أصدقائي من المحامين من خلف زجاج عازل للصوت وأتواصل معهم بالإشارة. لكن هل كان كل المشهد يحوي شيئا من القانون؟ يحتوي شيئًا عن التحقيقات؟ كان يتم تجديد حبسنا بالمئات على ذمة التحقيقات دون أية تحقيقات... فهل هناك مسمى آخر لكل هذا سوى العبث؟

فلا تحاول أن تفهم الأسباب أو تبني مقدمات أو تترصد نتائج... قمة العبث أن تحاول أن تنمنطق العبث.

الدنيا ريشه في هوا.. واحنا النهارده سوا وبكره هنكون فين!

أخبرتك عن ولعي بالاستماع الدائم إلى الأغاني، في السجن الوقت طويل جدًا لذلك تجد أغاني أم كلثوم متسع لها وتستطيع أن تتمزج بالإعادة وترجو لو تشدو أغنية خلف الثانية ولا تتوقف. هذا الزمن الطويل وتقدير قيمة الوقت جزء مهم من مكاسب التجربة. الزمن السريع في حياتنا سرق منا عمرنا والقدرة على الاستمتاع، بينما هذا الرتم الطبيعي للثواني والدقائق يعيد إلينا القدرة على التكيف مع المتغيرات التي تحدث، تنفس بعمق وتذكر أن كل هذا سينتهي وستخرج منه وتحمله معك لتكون مميز. التجارب تجعلنا أكثر تمييز قلبًا وقالبا إذا استطعنا أن ننظر لها بشكل منطقي و نستوعبها. الأغاني والكتب هما السبب الرئيسي لبقائي على قيد الحياة خلال فترة الانفرادي، ليس لأنني كان معي راديو أو كتب، لكن لأن في عقلي مئات الجمل من روايات وكتب استطعت أن أعيد مضغها حتى ارتويت وشبعت، وغنيت بصوت عالي في كل مكان، في سيارة الترحيلات، وزنازين الجلسات، والانفرادي، وعنبر المخدرات الذي تم عزلي فيه. وملأ قلبي الخيال ببراح جعلني أتمكن من أن أبقى حرة رغم كل شيء.

أما المكسب الآخر الأكثر قيمة بالنسبة لي الذي عرفته من خلال كم الشر والقبح الذي رأيته وعرفته. أن الخير والجمال لهم قيمة كبيرة في التفاصيل الصغيرة، أن الكلمات في الأغاني والروايات لها قدرة على البعث والخلق ونفخ الروح كالآلهة، أن الفن والحب

والرقص والضحك أهم ما في حياتنا. وأننا يمكننا أن نتغاضى عن الآلام البسيطة ونكف الشكوى والتذمر من الشوك في الورد ونكتفي بمتعة جمال الورد. أن مقاومة القبح بالجمال واجب. وأن مقاومة اليأس بالضحك واجب. وأن الأيام دول مهما بدى الثبات للحال.

بوابة الخروج

الساعة 11 مساءًا كان الميعاد الأهم بالنسبة لي في فترة ال3 شهور الذين كنت فيهم في عنبر جماعي مع سياسيات للأسف ما زال أغلبهن هناك. الساعة 11 كانت تعني فقرة أم كلثوم، وهي الأمر الوحيد الذي تمسكت به رغم اعتراض إحدى السجينات المؤبدات في قضية قتل، كانت "حياة" المغربية تبدي ضيقها الشديدة من أم كلثوم وصوتها، كان مزاجها فرنسي وتحب الأغاني الفرنسية والأسبانية، شاركتها اهتماماتها واستمعت معها للأغاني الفرنسية، أحب "أديث بياف" وخاصة أغنية " Non, Je Ne Regrette Rien" أنا لا أندم أبدًا. لكن هي "حياة" بعد فترة طويلة في السجن والعمل كمرشده للأمن خاصة على السياسي لاتساع ثقافتها كانت تظن أنها تحظى بشيء من السلطة ترفض تعدينا عليه. تعاطفت معها في كثير من الأمور، فلقد قضت أكثر من عشرين عام في هذا المكان البشع، لكني لم أقبل أية تفاوض على فقرة "الست" في الحادثة عشر مساءًا كنت أجلس أنا وزميلاتي السياسيات نستمع لها وندخن سجائرنا. ثم أمضي إلى "فرشتي" أقرأ وأكتب كما أقضي باقي يومي. تلك الشهور الثلاثة كانت أفضل فترة من حيث ظروف الحبسه لكن كانت أقساهم من حيث البصيرة التي رآت وعرفت ما كانت تفضل أن تظل تجهله.
بعدها لما تم نقلي للانفرادي كنت في داخلي أرجو لو تعود سهرة "الست" ومشاركة أطراف الحديث مع زميلات سياسيات، كبديلًا لطيفًا عن متابعتي لبقعة مياه صغيرة أسقطها أرضًا واتابعها تجف عبر الساعات وتتقلص حدودها، أو من استخرج حكمة ما من مشاهدة الناموس وهو يمتص دمائي لينتفخ ثم اتابعه يتخبط من ثقل الدم الذي يمتصه حتى يقف مكانه لساعات ويسقط ميتًا.

قال لي صديق وأنا على إحدى استراحات الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية فجر يوم 1 سبتمبر 2021 وأنا في طريقي للبيت من مبنى الأمن الوطني في العباسية:

- أنتِ هنا الآن، أنتِ بأمان. أنتِ حرة.

كان يرى في عيني متاهة سؤال يتردد برأسي، هل ما يحدث حقيقي؟ هل أنا فعلًا خرجت؟ فقط منذ بضعة أيام كنت مضربة عن الطعام بسبب منع التريض والحركة عني تمامًا وقطع كل طرق التواصل بيني وبين البشر! وقيل لي تأقلمي مع الوضع لأنك لن تخرجي قريبًا لا أحد منكم سيخرج.

تنشقت بهدوء نسمة الهواء الباردة للصحراء الواسعة واغمضت عيني للحظات، قبل أن أفتحها ثانية على واقع أنها انتهت. تلك المرحلة من التجربة انتهت، والآن انفك القيد ولن يقوم شخص بتغمية عيني أو اقتيادي لمكان مجهول، الآن لن ترتفع دقات قلبي في انتظار نتيجة العراك الذي أخوضه لأبسط حقوقي مرة بعد الأخرى. الآن تمكنت من استعادة حق جسدي في حريته.